الله يتجلى في خلق الإنسان

دكتور
جمعة علي عبد القادر
الأستاذ المساعد بقسم التفسير

الله يتجلى فى خلق الإنسان

دكتور

محمد على عبد القادر

الأستاذ المساعد بقسم التفسير

الحمد لله رب العالمين خلق الإنسان وعلمه البيان وأتم عليه نعمه ظاهرة وباطنه من بدء خلقه إلى أن يلقاه فقال تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم)(١) وقال تعالى (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهره(٢) وباطنه والصلاة والسلام على رسول الله أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)(٣) فبه انتظم أمر العالم وعلى أثره اقتدى به السالكون - أما بعد :

فهذا بحث أتعرض من خلاله إلى الإنسان - هذا المخلوق العظيم الذى

---

(١) سورة التين الآية ٤ .

(٢) سورة لقمان الآية ٢٠

(٣) سورة الصف الآية ٩

أمر بأن يكون لله عابدا فكان هو والجن قد قصر على العباده يتضح ذلك فى قول الله تعالى وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[1] - وإنى فى هذا المبحث سوف أتعرض إلى الأنسان من حيث خلقته - ماذا قالته الأديان فيه - خليفة الله فى أرضه - نعم الله التى من الله عليه بها ثم أنتقل بعد ذلك فاكشف اللثام حول ما قاله المفترون على الأنسان ومن بينهم أنصار نظرية داروين - فأعرض لها ثم أقوم بتزيفها ثم أحصن الشباب ، من الوقوع فيها فإذا ما انطبع فى ذهن القارىء هذا التصور العام للإنسان وأطواره وكيف كان مخلوقا عظيما نكون قد وضعنا الأمور فى نصابها فلا يزيغ إلا هالك ولا يشك إلا ملحد بل الإطار العام الذى يغلف القلوب ويتردد صداه فى كل زمان ومكان عندما يلح على الأذهان من الخالق. من المبدع لا يجد هناك جوابا إلا جواب واحد إنه الله .

الله خلق الإنسان :

إذا تصادف أن مر الأنسان على مزرعه شاسعه فى مكان مقفر ووجد أنه قد ضرب حولها سور حديدى يمنع عنها غوائل المعتدى وأن هذا السور قد زين بما ترتاح إليه الأعين من نباتات ومتسلقات وخلف السور قد زرعت مصدات الريح ومانعات الهبوب وللمزرعة باب جميل ومناسبا - على جانبيه مقاعد وفيرة لراحة الداخل وأماكن لقضاء حاجته من أكل وشراب ، ثم تتسع بعد ذلك المزرعة فترى أشجارها المختلفة الأصناف قد شزيت، وأزهارها المتعددة الأشكال قد نسقت، وترعها وقنواتها شققت بما يحقق الغرض منها، وفى وسطها بناء للسكن قد حسن وانتظم مابداخله وقد زود بكل مايحتاج إليه المرء . فهل يسند خلق ذلك إلى مصادفة ، وأن هذه المزرعة وهذا البناء إنما وجدا من عدم أو أنها والمكان الخرب سيان - كذلك الحال فى عجائب الحياة فى الأحياء - .

إذا ألقينا نظرة عابرة متأملة على كائن حى ، لا نملك إلا أن نسبح للخالق

(١) الذاريات آية ٥٦ .

الذى يثبت وجوده مما نراه فى عجائب الحياة - الإنسان والحيوان والنبات - والعجب كله الذى يثير الدهشة يتجلى فى الإنسان .

الإنسان والأديان :

وأبدء الحديث عن الإنسان بنظرة سريعة حول ماقالته الكتب السماوية فى الإنسان . هذا الكائن الذى تفرد بحمل الأمانة انرى التصور الكامل للانسان أين يكون ؟

الإنسان والتوراة :

تقول التوراة فى خلق الانسان (وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الارض - فخلق الانسان على صورته .. على صورة الله حلق : ذكرا وأنثى خلقهم[1] وبارکهم الله) فالإنسان كما تقول التوراة ، مخلوق على صورة الله وهو مسلط على كل مافى الأرض تسلط تدبير وتسخير ، وسيادة ، وهو مبارك من الله ، وانظر كيف تكرر القول بخلق الإنسان على صورة الله أربع مرات قال الله نعمل الإنسان على صورتنا ، كشبهنا فخلق الإنسان على صورته (على صورة الله خلقه) .

هذا التكرار توكيد للمعنى المراد هنا ، وهو أن الإنسان مخلوق على صورة الخالق حقيقة لا مجازا وليس معنى خلق الإنسان على صورة الله ، أنه إله آخر مع الله ، أو أنه صـــورة أخرى لله ، ولكن المراد بهذا الوصف ، هو تكريم الإنسان وأن الإله قد نفخ فيه من روحه . وأودع فيه من صفات الخالق قبسات من العلم والإرادة وغيرها من الصفات التى اختص بها الإنسان

(١) من سفر التكوين الإصحاح الأول ص ٦ برقم ٢٦ .

وهى التى فى حقيقتها وكمالها ـ لله وحده ـ ولهذا كان الإنسان جـــديراً بأن يكون خليفة الله فى الأرض وأن تسجد له الملائـكة فى السماء .

الإنسان والإنجيل :

ويحدثنا الإنجيل عن الإنسان بأنه (ابن الله) والناس أبناؤه ـ يقول السيد المسيح : (طوبى لصانعى السلام ، أنهم أبناء الله يدعون) والصلاة التى يرفعها الناس إلى الخالق تستفتح فى الإنجيل بهذا النداء الحبيب : (أبانا الذى فى السماء ، ليتقدس اسمك ، ليـأتى ملكوتك) بل إن الإنجيل ليرى الإنسان على قة هذا الوجود فيقول الإنجيل على لسان السيد المسيح (أليس مكتوبا فى ناموسكم أنى قلت أنكم آلهة)(١) .

وتـكرر فى الإنجيل كلمات ـ الأبناء ـ والآب ـ أبناء الله والأب السماوى فى كثير من الآيات وينبغى ألا يفهم من ذلك أبوة وبنوة على الحقيقة إنما هى أبوه رحمة وأبوه حنان وإبداع وإنما هى بنوة حب وولاء واحتياج .

الإنسان والقرآن :

وإذا نظرنا فى القرآن الكريم فإننا نجـــده يضع الإنسان على رأس المخلوقات جميعها لما اختصه الله به من فضل وتـكريم . انظر إلى قوله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(٢) وقوله تعالى « يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك »(٣) فالإنسان

(١) انظر إنجيل متى الإصحاح الخامس ص ١٤ برقم ٩ والإصحاح السادس ص ٢٣ برقم ١٠ .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٠ .

(٣) سورة الانفطار آيات ٦ : ٨ .

فى القرآن كائن يحتل مكانة رفيعة عند الله ـ قد خلقه فى أحسن تقويم وسخر له مافى السموات والأرض وهذا هو ما تبرزه الآية واضحة جلية فى قوله تعالى « وسخر لـكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لـكم الأنهار وسخر لـكم الشمس والقمر دائبين وسخر لـكم الليل والنهار وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها)(١) ويعدد الله تعالى نعمه إذ يقول « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلـكم تشكرون »(٢) .

والقرآن يخاطب إنسانا عاقلا رشيدا ، وأنه لـكى يؤكد ماعند الخالق جل وعلا فى رحمة وفضل وتـكريم للإنسان ولم يجعل ذلك أيضا عن علاقة كعلاقة الأب بأبنائه كما يقول الإنجيل وإنما ذلك عمن فضل من مصدر الفضل ، وإحسان ممن بيده الإحسان وتـكريم ممن يرد إليه كل شىء وذلك المعنى الذى ذهب إليه القرآن ، هو الذى ينبغى أن يؤول إليه ماجاء فى التـــوراة وما ورد فى الإنجيل ، ولـكن هذا الذى جاء به القرآن فى الصلة بين الإنسان وربه آكد وألزم ، لأنه قد يشبه الشىء الشىء ، ولا يكون بينهما رابطا من روابط الحب والائتلاف ، ولأنه قد يقع بين الآباء والأبناء ما يقتضى التفرد أو التقاطع فى بعض الأحيان ، ولـكن الصلة التى لاتنفصل أبدا . هى الصلة بين الخالق وما أبدع من مخلوقات . هى صلة فى مكان الاعزاز والتـكريم ، أنه لن يقع بين الخالق ومخلوقاته إلا كما يقع بين الفنان وبين ماأبداع من الآيات من فنه ومانفخ فيه من روحه ولله المثل الأعلى .

والناظر فى القرآن الكريم يجد أن لفظ الإنسان قد تـكرر فى خمسة وستين موضعا تتدبر سياقها جميعا ، فنطمئن إلى الدلالة المميزة للإنسانية ، ونبدأ

(١) سورة إبراهيم الآيات من ٣٢ : ٣٤ .

(٢) سورة النحل آية ١٤ .

بسورة (العلق) أول ما نزل من كتاب الإسلام وفيها يمكن أن تجتلى الملامح العامة للإنسان وقد تكرر ذكره فى هذه السورة الأولى ثلاث مرات :

إحداها : تلفت إلى آية خلقه من علق .

الثانية : تشير إلى اختصاصه بالعلم .

الثالثة : تنبه إلى ما تورط فيه من طغيان حين يتمادى به الغرور فيرى أنه استغنى عن خالقه وهذا هو ما يصوره لنا أول خطاب من السماء للأرض فى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إنا إلى ربك الرجعى »(١) .

هذه هى السمات المجملة للإنسان، كما بدت فى السورة الأولى من القرآن ثم تتابعت الآيات بعد ذلك تزيدها جلاءاً وبيانا ، بما تضيف إليها من إضاءة كاشفة لدقيق الملامح وخفى النوازع .

وقد تكررت الإشارة إلى خلق الإنسان من علق أو من نطفة أو علقة فى آيات كثيرة ، وآيات خلق الإنسان جاءت كلها فى سياق العظة والاعتبار لافتة إلى أطوار الجنين البشرى التى يدركها الناس بأية ملاحظه وانتباه ، ويبدوا من الآيات العهد الواضحة إلى الاستدلال بها على القدرة الإلهية على البعث من ذلك قوله تعالى « فلينظر الإنسان مما خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر »(٢) وقوله تعالى « قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره »(٣) وقوله تعالى « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه

(١) سورة العلق الآيات من ١ : ٨ .
(٢) سورة الطارق الآيات من ٥ : ٨ .
(٣) سورة عبس الآيات من ١٧ : ٢٢ .

سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا »(١) وقوله تعالى : « أو لم يرى الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »(٢) وقوله تعالى « ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى »(٣) وأيضا قوله تعالى « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا »(٤) .

وإذا كان الأسلوب العلمى فى التشريح والاحياء ، لا يتعلق بمثل الكفر أو الشكر والإيمان والخصومة والابتلاء والغرور فإن طبيعة النص القرآنى من حيث هو كتاب هدى ودين تقتضى توجيه كل لفظ وآية إلى مناط الهداية والاعتبار ولمثل هذه الغاية يحرص كتاب الإسلام على تذكير الإنسان بهوانه وضعفه فيلمته إلى خلقه من تراب أو من طين أو من نطفة أو علقة ثم من نطفة أو من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ولا شىء من هذا يحتاج فيه الإنسان إلى دراسة علمية ليدركه كيحاً بجماح غروره كى لا يتجاوز قدره فيطغى ويستكبر .

والإنسان مظنة أن يتمادى به الطغيان والغرور إلى حد الكفر بخالقه والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبين وهذا هو ما صوره القرآن بقوله « خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين »(٥) وقوله « وخلق الانسان

(١) سورة الإنسان الآيتان ٢ ، ٣ .
(٢) سورة يس الآيات من ٧٧ : ٧٩ .
(٣) سورة القيامة الآيات ٣٧ : ٤٠ .
(٤) سورة الكهف الآية ٣٧ .
(٥) سورة النحل الآية ٤ .

ضعيفا »[1] وقوله أيضا « أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا »[2] وقوله تعالى « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك »[3] ومن شأن الانسان أن ينسى ربه فى حال النعمة والقوة فأما إذا مسه الضر فإنه يذكر خالقه فى ضراعة وابتهال ، يتجلى ذلك فى قوله تعالى « وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه »[4] .

وقوله تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا)[5] وقوله تعالى : (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور)[6] وعلى هذا المنهج أيضا قول الحق تبارك وتعالى (ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا)[7] وقوله تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا)[8] وقوله تعالى : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار)[9] وحول هذا المعنى أيضا قول الحق : (فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون)[10] وأيضا قول الحق : (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم

---

(١) سورة النساء الآية ٢٨ .
(٢) سورة مريم الآية ٦٧ .
(٣) سورة الانفطار من الآيات ٦ : ٨
(٤) سورة يونس الآية ١٢ .
(٥) سورة الإسراء آية ٦٧ .
(٦) سورة هود آية ١٠ .
(٧) سورة الإسراء آية ١١ .
(٨) سورة الإسراء آية ٨٣ .
(٩) سورة الزمر آية ٨ .
(١٠) سورة الزمر آية ٤٩ .

سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور)[1] وذلك هو مزيد تفضيل وبيان لما فى آية الوحى الأولى « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى »[2] والإنسان فى القرآن الكريم هو الذى خص بالعلم لأن من خلقه أراد له ذلك « علم الإنسان ما لم يعلم »[3] والإنسان هو الذى خص بالبيان « خلق الإنسان علمه البيان »[4] وبما تهيأ له من وسائل التعقل والتبصر والتمييز بين الخير والشر وذلك كله من جوهر إنسانيته وبها يحمل الأمانة ويحتمل تبعات التكليف ومسئوليه الثواب والعقاب مصداق ذلك قول الحق : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى »[5] وعلى هذا النسق يقول القرآن أيحسب الإنسان أن يترك سدى »[6] ويقول أيضا « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »[7] ثم إن الإنسان هو الذى يحتمل الوصية مصداق ذلك فى كتاب الله « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »[8] . وأيضا « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »[9] وهموم المكابده واقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنسانى وأداء مسئوليته الاجتماعية توضيح ذلك فى قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد أيحسب أن لن يقدر عليه

---

(١) سورة الشورى آية ٤٨ .
(٢) سورة العلق الآيات ٦ : ٧ .
(٣) سورة العلق آية ٥ .
(٤) سورة الرحمن الآيات ٣ و ٤ .
(٥) سورة النجم الآيات ٣٩-٤١ .
(٦) سورة القيامة آية ٣٦ .
(٧) سورة الإسراء آية ١٣ و ١٤ .
(٨) سورة العنكبوت آية ٨ .
(٩) سورة لقمان آية ١١ ، ١٢ .

أحد ،(١) « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة ،(٢) « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ،(٣) كما أنه الذى يتعرض لتجربه الابتلاء ومنه الغواية تبين ذلك فى كتاب الله « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جائنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ،(٤) وقوله أيضا « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (٥) وأيضا قوله تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ،(٦) والابتلاء منوط بالإنسان لأنه هو المخلوق الذى له الاستعداد لذلك دون غيره « أنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ،(٧) ويظل الإنسان ما عاش كادحا لمصيره ومحتمل هموم المكابدة وتجربة الابتلاء حتى يحين الأجل فيمشى : فما أعجب قصة هذا الإنسان فى رحلته العابرة ما بين الحياة والموت ، هل تعدو أن تكون فى مجملها إلا كما وصفها البيان القرآنى « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ،(٨) وقصة الإنسان تستدعى منا التأمل من بدايتها إلى نهايتها .

خليفة الله فى أرضه :

وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم

(١) سورة البلد آية ٤ و ٥ .
(٢) سورة البلد آية ١١ و ١٢ .
(٣) سورة العصر .
(٤) سورة الفرقان الآيات ٢٧-٢٩ .
(٥) سورة ق آية ١٦ .
(٦) سورة الحشر آية ١٦ .
(٧) سورة الإنسان آية ٢ .
(٨) سورة التين الآيات ٤ - ٦ .

ما لا تعلمون ،(١) تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم أبو البشرية والقرآن الكريم يشير إلى أنه تعالى قد خلقنا أطوارا كما يلفت إلى مرحلة زمنية ، لم يكن الإنسان فيها شيئا مذكورا « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ،(٢) .

ومن بدأ الخليقة اصطفى الإنسان الأول للخلافة فى الأرض ولست أدرى ما إذا كانت الأديان التى سبقت الإسلام قد نزلت بهذا الاصطفاء وإنما قصارى ما أعلمه هو ما جاء فى كتاب الاسلام من إعلان خلافة آدم فى الأرض فإن لم يكن هذا الاعلان غير مسبوق إليه فى دين قبله فلقد البشرية لم تكن قد بلغت من الرشد المرحلة التى تهيئها لوعى هذه الخلافة وإدراك خطر جلالها وتبعات أمانتها وإن امتد عهدها موغلا فى أعماق الزمن السحيق إلى عصر النشأة الأولى أو بتعبير أدق كان آدم أبو البشرية موعودا بها من قبل أن يخلق فى اللحظة التى أذنت الكون باستقبال هذا الطور الجديد من الخلق - فى مستهل العهد المدنى نزلت سورة البقرة وفيها ذكر لإعلان خلافة آدم فى الأرض « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ،(٣) والآية ومعها آيات خلق آدم صريحة فى أنه مسبوق بأنواع أخرى غير بشرية منها هذه الملائكة التى لا ندرى كنهها ولا يأذن لنا العلم فى أن نخوض فيها وهى من الميتافيزيقية التى أخرجها العلم الحديث من مجاله وكذلك لا يأذن لنا الدين أن نقول فيها ما كثر مما تلا علينا كتاب ديننا ومنه نعرف أن الملائكة طور سابق على خلق آدم وقد عاشت فى عالمها الذى لا يحيط به إدراكنا

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .
(٢) سورة الإنسان آية ١ .
(٣) سورة البقرة آية ٣٠ .

خاضعة لنواميس غير التى يخضع لها نوعنا الآدمى ، تسيره الإرادة العليا على وجه التسخير فتأتمر بها فى خضوع وإذعان دون أن تبتلى بحرية إرادة واختيار ودون أن تهيئها طبيعتها العلم أو خلق سابق بل دون أن تدرك ضرورة ما للوجود من طور جديد من المخلوقات ليس مثل خضوعها وتواضعها وطهرها وهى المذعنة للتسخير المطلق والكون يسير قبل هذا الآدمى فى سلام والملائكة فيهم رسل ربهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، ولنا أن نقترض دون تعسف أن المرحلة التى سبقت وجود آدم مباشرة وكانت مؤذنة بتحول وشيك ظهرت بوادره لأولى حين تلقت الملائكة النبأ الإلهى المؤذن بخلق بخلق آدم خليفة فى الأرض فبدأ يفكر فى العلل والأسباب ، على غير المعهود فى طبيعتها من الاذعان والتسليم وقيامها بأمر الله دون تفكير أو مراجعة ، ويؤنسنا فى هذا الافتراض أن القرآن على كثرة ما تحدث عن الملائكة كان موقفها فيه من خلق آدم وخلافته فى الأرض هو الموقف الوحيد الذى مارست فيه الملائكة حق السؤال والجدل ؟ وفيما عدا هذا الموقف يأتى حديث القرآن فيصرفنا عمدا عن البحث فى كنهها وجوهرها ويذكرها رسلا مسخرين « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »(١) « حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم »(٢).

وبصددهم أيضا يقول القرآن « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون »(٣) حتى إذا قال لهم سبحانه « إنى جاعل فى الأرض خليفة » استباحوا أن يسألوه تعالى « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »(٤) وقد عادت الملائكة بعد كلام الله إلى مألوف وضعها من الطاعة والامتثال والاذعان ، لم يشذ عنها إلا إبليس فباء باللعنة « وإذ قلنا للملائكة استجدوا لآدم فسجدوا إلا

(١) سورة التحريم آية ٦ .
(٢) سورة الزمر آية ٧٥ .
(٣) سورة النحل آية ٤٩ .
(٤) سورة البقرة آية ٣٠ .

إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »(١) ويسوقنا هذا الافتراض إلى تصور المرحلة السابقة مباشرة على الطور الآدمى شبيهة بمراحل الارهاص والتهيؤ التى تعرفها الحياة ويثبتها العلم البيولوجى والتاريخ الحضارى إذ يلمح دائما قبل كل طور أو عصر جديد ، ببوادر التحول المرتقب وفيها تلوح على الطور الأسبق بعض سمات وملامح من الطور الجديد فى هذا الموقف الذى وقفته الملائكة من قول الله « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ما يشبه أن يكون بادره مؤذنة بجديد إذ أن الإنسان وحده هو الذى انفرد دون الكائنات بخاصية التفكير والجدل ومسئولية الاختيار وما عهدنا الملائكة فيما تلى علينا القرآن من أمرها تتجه إلى مثل ذلك السلوك المجافى لخلقتها وطبيعتها وهو السلوك الذى لا نلبس أن نراه خاصية مميزة للطور الآدمى الجديد ولقد كانت محنة إبليس أثر الوقوع الحدث الجديد على الدور السابق لآدم والذى لم يتهيأ لغير الطاعة والتسخير كما كان إصراره على المعصية إذانا بالصراع المحتوم بين الخير والشر وبيانا للهوة السحيقة الفاصلة بين عصر الطاعة المطلقة والتسخير التام وبين ما ينزر به الاختيار من إمعان فى التمرد وانحراف إلى الشر والضلال ، والآدمية ليست ملائكية ولا إبليسية وليست جبرية تسليم وطاعة تسخير ولا هى محض شر - وشهوة تمرد وإصرار على الضلال وإنما هى تحقيق للذات عن تمييز ووعى وإرادة - هى تجربة الابتلاء ، يتعرض فيها آدم للغواية فيغوى ، ثم يؤرقه ضميره وتحاسبه النفس اللوامة ، فيندم ويتوب ويمضى ليمارس خلافته فى الأرض ، فلا تكون حياته كلها من بدء خلقه إلى آخر وجوده إلا معركة متصلة بين الخير والشر يحتمل فيها تبعات عمله ومسئولية اختياره وعصمه الملائكة عن إجبار ، دون خيرية البشر عن اختيار ، وكل خير من الإنسان مجد لا نحظى به الملائكة المسخرة وأى شر تفسخه التوبة ويكفر عنه حساب النفس اللوامة أو هذه هى الآدمية السوية التى استحقت

(١) سورة البقرة الآية ٣٤

الخلافة فى الأرض وحين يشذ بعض أفرادها عن هذه الآدمية السوية فيقترف الشر شهوته ومتعة دون أن يردعه ضميره أو يؤرقه قلقه ، فإن هذا الشذوذ يخرج بمثل ذلك الشرير عن طبيعة الآدمية ويمسخه شيطانا مريدا ، من صنف إبليس أصل الشر ، من هنا لم يكن فيما توقعت الملائكة لآدم ، من إفساد فى الأرض وسفك الدماء ما يبرر حرمانه من الخلافة فيها ، دون الملائكة التى تسبح بحمد الله وتقدس له ، فالابتلاء يقضى أن تكون أمام آدم شرور تغويه لكى تمتحن طاقته وتصهر معدنه وأمانة الإنسان تعنى أن تواجه التجربة ويخوض المعركة بين الخير والشر ، ليكون خيره له وشره عليه ، وهو ما خلق ليعيش فى أفق الملائكة التى تسبح بحمد الخالق وتقدس له وإنما خلق ليعيش حياته على هذه الأرض ويمارس خلافته فيها ، والخير المحض لا يبرر الخلافة إن كان خيرا بغير إرادة واختيار(١) .

خلق فسوى :

بعد الحديث عن قصة آدم وخلافته فى الأرض وجعل أبناءه عمارا مصلحين لهذا الكوكب الذى نعيش عليه يهمنى بالضرورة أن أسلط الأضواء على نعم الله المبثوثة فى هذا المخلوق الذى كان عن الله خليفه له فى الأرض . وأن الحديث عن نعم الله فى الإنسان يطول إلا أن الطريقة التى نكشف بها هذه الأضواء من باب قول الله تعالى « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين »(٢) وحتى نتفهم جيدا هذا المعنى الذى تضمنته هذه الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى : « الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى »(٣) وقوله تعالى « الذى أحسن كل شىء خلقه »(٤) وقوله تعالى « صنع الله الذى أتقن كل شىء »(٥) .

(١) بتصرف من (مقال فى الإنسان ص ١٥) .
(٢) سورة الذاريات آية ٥٥ .
(٣) سورة الأعلى الآيتان ٢ ، ٣ .
(٤) سورة السجدة الآية ٧ .
(٥) سورة النمل الآية ٨٨ .

ولإنى أضع علامات استفهام حتى إذا تأمل الإنسان فيها ليجد لها جوابا أو تحليلا فإنه يعود بفكره إلى جواب واحد وهو إنه الله ونسأل أنفسنا مرات ومرات لنستلهم العظة والعبرة من خلال هذه التساؤلات وأقول . . .

من الذى دبر هذا الإنسان ذلك التدبير المحكم وهو جنين فى بطن أمه فى موضع لا يد تناله ولا بصر يدركه . ولا حيلة له فى التماس الغذاء ؟ ومن الذى أجرى إليه من دم أمه ما يغذيه كما يغذى الماء النبات حتى إذا أكمل خلقه وقوى أديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاة الضياء ، وعظامك على مباشرة الأيدى والتقلب فى الغبراء هاج الطلق بأمك فرفضك الرحم من مكانك كأنه لم يضمك قط فيما بعد ما بين ذلك القبول حين وضعت نطفة ، وبين هذا الدفع والطرد فمن الذى فتح لك بابه حتى ولجته ؟ ثم ضمه عليك حتى حفضت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب حتى خرجت منه كملح البصر لم يخنقك ضيقه ولم يحبسك صعوبة طريقك فيه فمن الذى أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تفسد ، وأوحى إليه أن يتسع لك حتى تخرج منه سليما ؟ ومن الذى حول ذلك الدم الذى كنت تتغذى به فى بطن أمك إلى لبن تحمله فى خزانتين عل صدرها ، ومن الذى رققه وصفاه ، وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخه . أعدل إحكام لا بالحار المؤذى ، ولا بالبارد المردى ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة ، جمع لك فيه بين الشراب والغذاء ؛ ومن الذى جعل فى رأسه حلمه بمقدار صغر فكك ، ثم ثقب لك فى رأسها ثقبا لطيفا لم يوسعه فتختنق باللبن ولم يضيقه فتمصه بكلفه ، حتى إذا قوى بدنك واتسعت أمعاؤك واحتجت إلى غذاء يشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك وضع فيه آلة القطع والطحن فمن الذى حبسها عنك أيام رضاعتك رحمة بأمك وإعطاكها أيام أكلك رحمة بك ثم أنظر كيف أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئا وذلك من رحمته بك وجعل العقل والفهم يتنقل فيك بالتدريج شيئا فشيئا واعتبر ذلك إذا سبى صغيرا من بلده ومن بين

أبويه ولا عقل له فإنه لا يؤلمه ذلك وكلما كان أقرب إلى العقل كان أشق وأصعب ثم لو ولدت عاقلا كحالك فى كبرك تنغصت عليك حياتك لأنك ترى نفسك ضعيفا وضيعا معصبا بالخرق مربطا بالقمط عاجزا عن مايحاوله الكبير ثم لم يمكن يوجد لك من اللطافة والوقع فى القلب مايوجد للمولود الطفل بل يكون أنكد خلق الله وأثقلهم فكان دخولك هـذا العالم وأنت غبى لا تعقل شيء ولا تعلم مافيه أهلة محض الحكمة والرحمة بك فتلقى الأشياء بدهن ضعيف ثم يتزايد فيك العقل والمعرفة حتى تألف الأشياء وتتمرن عليها فمن هذا الذى هو قيم عليك بالمرصاد ويوافيك بكل شيء من المنافع وقت حاجتك لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخره عنها ؟

ثم أعطاك الأظافر وقت حاجتك إليها لتعين الأصابع وتقويها ـ فإن أكثر العمل برؤوس الأصابع مع ما فيها من منفعة حك الجسم وكشط الأذى ثم جملك بالشعر زينة ووقاية من الحر والبرد وجعل وجه الذكر باللحية وقارا وهيبة وفصلا له عن سن الصبا وفرق بينه وبين الأناث وبقيت الأنثى على حالها لما خلقت له من استمتاع الذكر بها فبقى وجهها على حالته ونضارته ليكون أهيج للشهوة وأكمل للذة الاستمتاع ، فالماء واحد والجوهر واحد والوعاء واحد فمن الذى أعطى الذكر الذكورة والأنثى الأنوثه ، ثم ارجع إلى نفسك وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها للمنفعة المهيأة لها . فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والعطاء والمحاربه والدفع والرجلان لحمل البدن والسعى . والركوب . وانتصاب القامة ـ والعينان للاهتداء والجمال والزينة . ورؤية عجائب السموات والأرض والفم للغذاء والكلام والجمال والأنف للنفس وإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه واللسان للبيان والترجمة عنك . والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها . واللسان يبلغ عنك والمعدة خزانه ليستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه . طبخا آخر غير الذى توليته من الخارج لانستطيعه

أنت ولا تقدر عليه ، فهو بوقد عليه نارا تذيب الحصى ، وهى فى ألطف موضع منك لا تحرق ، من الذى صنع لك ذلك كله ؟ ومن الذى وزع صفو الغذاء على كل عضو وعظم ، وعصب ولحم وشعر وظفر ، وجعل المنافذ والأبواب لإدخال ماينفعك واخراج مايضرك وجعل الخزائن المختلفة تحفظ مادة حياتك ؟ فهذه خزانة للطعام ، وهذه خزانة للحرارة ، وهذه خزائن للصفراء فمن الذى تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير ؟ ثم انظر إلى الحواس التى منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ولم تجعل فى الأعضاء التى تمتهن كاليدين والرجلين فتعرض للآفات ولم يجعلها فى وسط البدن كالبطن والظهر فيتعسر عليك التلفت والاطلاع على الأشياء فكأن الرأس صومعتها ثم تأمل كيف جعل الحواس خمسا فى مقابلة الأصوات والشم فى مقابلة أنواع الروائح ، والذوق فى مقابلة الكيفيات ، والمذوقات واللمس فى مقابلة الملموسات ، ولما كان ماعداها يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة وتأمل كيف أعينت هذه الحواس بمخلوقات منفصلة عنها .

فأعينت حاسه البصر بالضياء ولولاه لم يتمتع الناظر ببصره ، وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات فى الجو ثم يلقيها إلى الأذن فتحولها ثم تنقلها إلى القوة السامعة ، وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف ، يحمل الروائح ثم يؤديها إليها فيدركها ، وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل فى الفم ، ولذا لم يكن له طعم لئلا يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده ، وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شيء من خارج لأنها تدركها بالإجتماع والملامسة ، ثم تأمل ذلك الصوت الخارج من الحلق كيف هيأ له آلاته وأعد له معداته . تجد الحكمة الباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان ، فيسمع له مقاطع ونهايات وأجراس

يسمع له عند كل مقطع بنهاية جرس مبين منفصل عن الآخر ، ويحدث بسببه الحرف وينشأ عن ذلك الاختلاف فى تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كله أمره ونهيه ، وخبره واستخباره ، نظمه ونثره ، فمنه المضحك والمبكى والمؤيس والمطمع ، والمحزن والقابض . أنشأ الله ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر فترى اللسان جارحه واحدة وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت فالآية فى ذلك كالآية فى الأرض تسقى بماء واحد ويفضل الله بعضها على بعض فى الأكل . وقد شبه أصحاب علم التشريح مخرج الصوت بالمزمار ، والرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه ، والعضلات التى تقبض على الرئة ليخرج الصوت عن الحنجرة بالأكف التى تقبض على الزق حتى يخرج الهواء فى القصبة والشفتين والأسنان والتى تصوت الصوت حرفا ونغما بالأصابع التى تختلف على المزمار فتصوغه الحانا والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأبخاش التى فى القصبة حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الإنسان ثم تامل اختلاف هذه النغمات ، وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاه والأسنان (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين)(١) .

وتأمل كيف أودع هذه الآلات مآرب أخرى ففى الحناجر مسلك النسيم الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم ، وفى اللسان التمييز بين الطعوم وفيه معونة على إساغة الطعام وإسناد الشفتين وإمساكهما عن الاسترخاء وتشويه الصورة وغطاء للفم يفتحهما متى شاء ويغلقهما متى شاء ، وتأمل الدماغ كيف أعطاه الله خلقه بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصرنه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب ، ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة التى تصل إليه فتتلقاها تلك البيضة عنه كالخوذه فى رأس

(١) سورة الروم آية ٢٢ .

المحارب — ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذى هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ، ثم كسيت الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد والأذى ؟ فمن الذى حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقدير وجعله خزانة أودع فيها من المنافع والقوى ما أودع . ثم أحكم تلك الخزانة وحصنها معدة الحواس والإدراك ؟

ومن الذى جعل الأجفان كالغشاء والأستار كالأشراج ، والأهداب كالرفوف عليها إذا فتحت ؟ ومن الذى ركب طبقاتها المختلفة وجعل لكل طبقة منفعة وفائدة لو اختلت طبقة منها لاختل البصر ؟ ومن الذى شقهما فى الوجه أحسن شق وجعلهما مرآة القلب وحارسا للبدن وراشد يرسله كالجند فى مهماته فلا يتعب ولا يعى على كثرة ظعنه وطول سفره ؟ ومن الذى أودع النور الباصر فيه فى قدر حجم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل طبقاته الكثيرة ؟ ومن الذى جعلهما فى أعلى الوجه كالحارس على الربوة العالية ؟ ومن الذى حجب الملك فى الصدر وأجلسه هناك على كرسى المملكة وأقام جنده الجوارح فى خدمته ؟ فمنها رسوله ومنها بريده ومنها ترجمانه ومنها أعوانه فلو شاهدته فى محل ملكه والمراسيم صادرة عنه ووارده ، والعساكر فى خدمته والبرد تتردد بينه وبين رعيته لرأيته وله شأن عجيب ، وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ،(١) وقلى بربك من الذى جعل فى الحلق منفذا للصوت والنفس وآخر للطعام والشراب . وجعل بينهما حاجزا ؟ ومن الذى جعل لمجرى النفس صمامه تغطيه كلما ابتلع الإنسان طعاما أو شراب ولو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لهلك الحيوان ، ومن الذى جعل الرئة مروحة للقلب لاتنى ولا تفتر ؟ ومن الذى جعل المنافذ لعضلات الغذاء وجعل لها أشراجا

(١) سورة الذاريات الآيتين ٢٠ - ٢١ .

تقبضها لكيلا تجرى دائما فتفسد على الإنسان عيشه، وتمنع الناس من مجالسة بعضهم بعضا؟ ومن جعل المعدة كأشد مايكون من الصعب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة ؟ فلو كانت لحما غضا لانطبخت ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء وعمل هو الطف من عمل المعدة؟ ومن جعل داخل الأذن مستويا كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت فينتهى إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء ؟ ومن جعل ماء العينين ملحا يحفظهما من الذوبان ؟ وماء الأذنين مرا يحفظهما من الذباب والهوام وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها ؟ ومن الذى جعل باب الخلاء فى الإنسان فى أستر موضع ؟ كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلى فى أستر موضع الدار ومن جعل الأسنان للإنسان حداد القطع الطعام والأضراس عراضا لرضه وطحنه ؟ ـ ومن سلب الشعور والأظافر فى الأدمى الإحساس لأنها قد تطول وتدعو الحاجة إلى أخذها ولو أعطاها الحس لألمته ومن جعل باطن الكف غير قابل لانبات الشعر لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الأعمال التى تباشر بالكف ثم تأمل حكمة الله فى حفظ الإنسان ونسيانه ولولا الحفظ لدخل عليه الخلل فى أموره كلها ولم يعرف ماله وماعليه ولاما أخذ ولا ما أعطى ولاما سمع ولا ما أرى ولاذكر من أحسن إليه ومن أساء إليه، ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان فلولا النسيان ماسلا شيئا ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة ولا مات له حزن ؟ ولا بطل له حقد ولا تمتع بشىء من الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة من عدو ولا نعمة من حاسد ، فتأمل حكمة الله فى الحفظ والنسيان ، مع اختلافهما وتضادهما وجعل فى كل منهما ضربا من المصلحة وتأمل كيف أعطى الله الخلق من علوم معاشهم ودنياهم بقدر حاجتهم كعلم الطب والحساب والزراعة وضروب الصنائع واستنباط المياه وعقد الأبنية وصنعة السفن واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد بها وتركيب الأدوية وصنعة الأطعمة والحيل فى صيد الوحوش والطير ودواب الماء ؟ والتصرف فى وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير

ذلك ثم منعهم علم ماسوى ذلك مما ليس فى شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولانشأتهم قابلة له كعلم الغيب وعلم ماكان وكل مايكون والعلم بعدد القطر وأمواج البحر وزرات الرمال ومساقط الأوراق ، وعدد الكواكب ومقاديرها وعلم مافوق السموات وما تحت الثرى وما فى لجج البحار وأقطار العالم وما يكنه فى صدورهم وما تحمل كل أنثى وما الأرحام وما تزداد إلى سائر ماعزب علمه فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه[1] هذا هو الإنسان الذى تجلت فيه عظمة الخالق وقد نقلنا فى أول البحث نظرة الأديان السماوية إليه واتضح لنا أن الإنسان خليفة الله فى أرضه ومدى ما أنعمه الله عليه به من نعم وأعظم تصويرها كما قال الحق جلا فى علاه : « وإن تعدو نعمة الله لاتحصوها »[2] بعد ذلك، ننقل القارى إلى الفرى والكذب التى قالها المفترون على هذا الإنسان وأشير بذلك إلى أنصار داروين ومن حذا حذوه فأبدأ الحديث عن ذلك بعنوان : افتراء على الانسان :

يقتضى من البحث فى الإنسان وخلقه أن اذكر مايقوله المفترون على الإنسان فى أصل خلقته . وهذا الافتراء يتجلى واضحا فيما عرف بنظرية داروين وسأعرض فى بحثى لأساس النظرية وما تنبنى عليه من أسس ثم أكر عليها بالبطلان .

حقيقة النظرية :

أما عن حقيقة هذه النظرية فى زعم أنصارها فخلاصتها ـ أن أنصارها يزعمون أن الحياة الأولى للإنسان والحيوان والنبات بدأت على ظهر هذه الأرض بجرثومة أو جراثيم قليلة تطورت من حال إلى حال تحت تأثير فواعل طبيعية حتى وصلت إلى هذه التنوعات التى نراها وعلى رأسها الإنسان .

(١) انظر آيات الله فى الآفاق ص ١٠٧ .
(٢) سورة إبراهيم الآية ٣٤ ، والنحل الآية ١٨ .

وعلى هذا فإن الإنسان عندهم بدأت حياته على ظهر الأرض بحرثومة صغيرة تحولت إلى حيوان صغير ثم تدرج هذا الحيوان وارتقى إلى حياة حيوانية بدائية فإلى حيوانات أكبر ريشية ومجنحة ثم تحولت إلى ذوات فقرات ثم ارتقت إلى حيوان أشبه بالإنسان ثم كانت نهاية هذا التطور إنسانا أول؟ لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم ثم إنسانا كاملا وهو المشهود اليوم بعقله وتفكيره وإدراكه .

ويقولون : إن هذه التحولات والتطورات والترقيات جاءت بعد صراع مرير بين هذه الكائنات وبين عوامل الطبيعة وتقلباتها . وبين نفس هذه الكائنات الحية بعضها مع بعض ، عبر آلاف القرون من أجل البقاء ، هذه هي خلاصة نظرية داروين المعروفة بالتطور والارتقاء كما يزعمون .

أسس النظرية :

وبعد هذا العرض الموجز لماهية نظرية (النشوء والارتقاء) يحق على أن أبرز الجوانب والركائز التي بنى عليها مؤسس النظرية حقيقة ما ذكره - حتى إذا عمدت لتفنيدها وكشف اللثام عن زيفها يكون ذلك موجها إلى النظرية بمحتوياتها - أما عن أسسها التي ذكرها صاحب النظرية فهي كما رأى أنها تعتمد على أربعة قواعد :

١ — ناموس تنازع البقاء .
٢ — ناموس الانتخاب الطبيعي .
٣ — ناموس المطابقة .
٤ — ناموس الوراثة .

(ا) أما عن ناموس تنازع البقاء فمعناه (كما يراه داروين) هو أن كل الكائنات الحية في تنازع مستمر - وأن البقاء إنما يكون للأكمل والأقوى

من المتنازعين أما الأضعف فإنه يتلاشى لأنه غير صالح للحياة - ويضرب « داروين » لذلك مثلا بمعناه .

إذا فرضنا وجود سرب من الأبقار الوحشية تسير في غابة ممتدة كعادتها لطلب الغذاء فإذا رأت مرعى تزاحمت عليه ، فالقوي منها يفوز بأطايب هذا المرعى فتزداد قوة على قوتها أما أضعفها فإنه يزداد ضعفا على ضعفه ، فبإدمانها على هذا العمل يزداد القوي قوة واكتمالا أما أضعفها فإنه يزداد ضعفا إلى ضعفه فلا يزال يتناقص حتى يتلاشى فهـذا ما يسمونه بناموس تنازع البقاء .

(ب) أما ناموس الانتخاب الطبيعي فيشرحه « داروين » بما معناه معقبا على ما تقدم فإذا انتقل هذا السرب من الأبقار إلى مسافة بعيدة ومر بطريق وعرة لا يقوى على اختراقها إلا الممتازون منها بالقوة فلا يصل إلى مأمنه إلا الممتازون بالقوة ، وهذا يعني أن نتيجة هذا التنازع كله ، بقاء الأصلح للبقاء وهلاك غير الأصلح أو زيادة ضعفه ، كأن الطبيعة في نظر داروين تنتخب الأقوى والأكمل فتبقيه ويتلاشى الأضعف والأنقص وتبيده ليكون نتيجة ذلك الإرتقاء بمعناه الأعم .

(ح) أما ناموس المطابقة فمعناه كما يرى « داروين » أن لنوع الأغذية وطرق الوصول إليها دخلا كبيراً في إحداث الاختلافات بين الأنواع - فمثلا المعروف عن الأسد الآن أنه حيوان من أكله اللحوم ، مفترس له أنياب حادة وبراثن قوية لاضطراره لتمزيق فريسته بأنيابه وأظفاره فلو وجدت نوع الأسد آلافا من السنين متوالية في وسط لا يمكنه من الافتراس ويجبره على تعاطي الأغذية النباتية لاضطر (بحكم الضرورة) لتعاطيها فتبطل وظيفة أنيابه الحادة وأظفاره الماضية ، فتضعف لإهمالها على توالي الأحقاب وتضمر وتوجد فيه آلات أخرى أصلح لمعيشته الجديدة

ظاهراً وباطنا كأن يتغير تدريجيا شكل أسنانه ، وتطول أمعاؤه لتحاكى أمعاء أكلة الحشائش من الحيوانات إلى غير ذلك من التنوعات ولو فرض أن تلك النباتات لاتتسنى للأسد إلا بخوض نهر أو بالتسلق على الأشجار تخلقت فيه على توالى الأحقاب ، أعضاء تناسب السباحة والتسلق إلى أخره فهـذا ناموس المطابقة : وناموس التحول كما يسميه البعض .

(د) أما ناموس الوراثة فمعنـاه « كما يراه داروين » أن الصفات العرضية التى تحدث فى الآباء بواسطة اختلاف الأحوال والأوساط المعيشية تنتقل إلى الأبناء ، فتنشأ تلك الأبناء مختلفة فيما بينها ولا يزال هذا الاختلاف يقوى على مر الأجيال والقرون حتى تستحيل تلك الاختلافات العرضية إلى اختلافات جوهرية توهم الرائى لها أنها اختلافات نوعية من أصل الخلقة وهى فى الحقيقة اختـلافات بسيطة فى مبادئها توالت عليها الحقب حتى ازدادت تأصلا فى الكائن الحى ونمت فيه فأدته إلى مباينة الأصل الذى نشأ منه تمام المباينة حتى إن الرائى لهما يظنهما من نوعين مستقلين ، وهما من نوع واحد كما نرى ذلك بين الحمار والحصان فإنهما (على مقتضى مذهب داروين) من نوع واحد وإنما اختلف الحمار عن الحصان هـذا الاختلاف تبعاً لمقتضيات الوسط الذى عاش فيه الحمار والجهاد المعيشى الشديد الذى تلبى به .

هذه هى خلاصة القواعد الأربع التى بنى عليها . داروين ، مذهب التطور والنشوء والإرتقاء .

الجانب الإلحادى فى نظرية « داروين » :

بعد بيان حقيقة النظرية وأسسها التى انبنت عليها يطيب لى أن أبرز الجانب الإلحادى فيها وذلك قبل التعرض لمناقشة جوهر النظرية على صعيد العلم والواقع .

لا بد لنا من أن نناقش فيها الجانب الإلحادى الذى حمـل لواءه بأسمها (أرنست هيكل) و (أوبارين) وقبلهما (لامارك) وغيرهم من ماديين وماركسيين استغلوا اهتمام الناس الشديد « علميـا » بهذه النظرية ، وإقبالهم على الاعتناء بها ودراستها فصاروا يتخذون منها شراكا يصدون بوساطته صغار العقول من البسطاء الذين قل حظهم من الثقافة الدينية فيرمونهم فى هاوية الإلحاد وذلك عن طريق تفسيرهم لهـذه النظرية تفسيرا بوساطته (وباسم العلم) فى روع هؤلاء البسطاء المجردين من الحصـانة الروحية والدينية .

إن واقع الوجود وطبيعة الكائنات الحية وتطورها وتحول بعضها عن بعض واشتقاق بعضها من البعض الآخر (كما هى قواعد التطور والارتقاء) من انتخاب طبعى واصطفاء نوعى ، يجعل من غـير الضرورى الاعتقاد بوجود خالق يتولى إدارة هذا الكون وتنظيمه ، لأن المادة (كما يزعمون) بطبيعتها وخصائصها الملازمة لها تقوم مقام هذا الخالق فى ذلك . فالجناح الإلحادى من أنصار هذه النظرية يزعم أن الحياة الأولى جاءت نتيجة تفاعل طبعى بين أجزاء من المادة ، هذه المادة التى يزعمون أنها كانت ولم تزل قادرة (بطبيعتها) على إعطاء الحياة ولهذا فهم ينكرون أن تكون الحياة من صنع قوة فوق الطبيعة فهذا الجناح الإلحادى (عندما يتحدث عن مراحل التطور والارتقاء يخرج من حسابه قوة ما ، فوق الطبيعة (وهى القوة الإلهية) لأن حالة المادة (بزعمهم) لاتحتاج إلى هذه القوة فالطبيعة الملازمة للمادة بحركتها الدائبة هى التى تخلق . وتنوع وتطور وتصطفى وتبيد .

ولسائل يسأل ويقول : ماهو مفهوم الطبيعة لدى هؤلاء ؟ والجواب كما قاله رواد هذه الفكرة :

فسر (لامارك) الطبيعة بأنها القوة العامة الملازمة للمادة المتنزهة عن

الفساد التى لا تفستر عن التأثير فى المواد طرفة عين غير أنها مجردة عن العقل ومحكومه بقوانين .

هكذا يقول « لامارك » .

ووصف الفيلسوف (لتيريه) الطبيعة بقوله : يظهر لنا أن الأسباب التى أوجدت الكون هى ذاتية فيه غير متميزة وهى التى نسميها نحن بالنواميس الطبيعة[1] .

فلا مارك ومن على مذهبه من الماديين يزعمون أن ظهور الأحياء إلى الوجود قد تم بفعل الطبيعة (مباشرة) وأن تنوع الأحياء إنما حدث بقوة الطبيعة الملازمة للمادة وعلى طريقة النشوء والتحول والارتقاء .

أوهن من بيت العنكبوت :

بعد ذكر خلاصه نظرية داروين وأسسها وما تضمنته من الجانب الإلحادى وتحليلاتهم للطبيعة التى أوجدت الأشياء وعلى رأسها الإنسان يكون الوقت قد حان لكشف اللثام عن هذا الإفتراء والمعول الذى أهدم به أساس هذا البنيان ان كان هناك بنيان هو رأى العلم وآراء العلماء .

ان نظرية التطور والارتقاء التى قال بها داروين نظرية غير ثابتة ثبوتا قاطعاً (لا من الناحيه العلمية ولا من الناحية الحسية وإذا كان داروين قد اعترف (صراحة) بأن الطريقة التى وجدت بها الحياه الأولى على وجه الأرض لا تزال مجهولة حتى يومنا هذا) فإن جهله بالطريقة التى تسلسلت بها الكائنات الحية وتنوعت (كما يزعم) لا تقل عن جهله بالطريقة التى وجدت بها الحياة الأولى على وجه الأرض وكيف ومتى وجدت فالمتتبع لما كتبه ونشره داروين

(١) انظر الإسلام ونظرية داروين ص ٢٧ .

عن نظرية التطور والارتقاء . يجد أن داروين لم يبن هذه النظرية على أسس علمية قاطعة ثابته لا يمكن الرجوع عنها وإنما بناها على افتراضات وتقديرات وتخمينات تحتمل الخطأ والصواب - فجميع الذين قالوا بنظرية التطور والارتقاء (وعلى رأسهم داروين) يعترفون بأن هذه النظرية هى فرض علمى يعوزه الدليل الحسى بل أن جوهر بحوث علماء التطور والارتقاء جميعا تشير كلها إلى أن أصول هذه النظرية وفروعها هى من باب الافتراض لا القطع ؟ والتقدير لا التأكيد .

قال الاستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله : وإذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور فى العلم لم نجد من يحسبه علما قاطعا مفروغا منه من أصوله وفروعه ! وأكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه صحيح فى بعض ملاحظاته ومقارناته[1] .

وإذا نظرنا إلى العلم فإننا نجد من يهدم بنيان هذه النظرية - وذلك أن كل ما استدل عليه « لامارك » و« داروين » لاثبات هذه النظرية هو تفسيرات وتقديرات مصدرها الإفتراض والتخمين الذى لا يسنده أى واقع شهد به العلم أو عضده الحس فى عصر من العصور والأزمان ، فمنذ أن خلق الله الدنيا حتى يومنا هذا لم يشهد أحد ولم يشعر بحادثة واحدة من حوادث التطور والارتقاء الذى يزعمون فلم يثبت (بأى وسيلة من الوسائل ولم تخط كلمة واحده فى أى سفر من الأسفار) .

تشير إلى أن شيئا من هذا قد حدث فعلا . فلم يثبت فى أى عصر من العصور أن عصفورا قد تحول إلى ديك ؟ أو أن حمارا قد تطور إلى حصان ، أو أن قرداً قد تحول (كما يزعمون) إلى إنسان فلو حدث شىء من هذا (فى أى عصر من العصور) لظل مدى الدهر من الأخبار - المتواترة والمتكرر

(١) من كتاب (عقائد المفكرين) ص ٥٦ (مذهب التطور)

حدوثه فى عدة عصور وفى مناسبات مختلفة مادام ناموس التطور والارتقاء حقيقة واقعه كما يدعون : ولكن الواقع المشاهد (بالتواتر منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها) وأن جميع أنواع الأحياء باقيه على ماهى عليه (من ناحية البيئة والتركيب والطبيعة) منذ أن ظهرت على وجه الأرض فالإنسان هو الإنسان بكل هيئته وبكامل طبيعته منذ أن نفخ الله فيه الروح ، وكذلك الحيوانات (بكامل أنواعها) هى باقية على ماهى عليه فى تكوينها الفعلى وحالتها الطبيعية منذ نشأتها الأولى . وهذا واقع لايستطيع أحد أن يثبت سواه أبدا (لامن الناحية العلمية ، ولا من الناحيه الواقعية ..) ومن ناحية أخرى فإن هناك مآخذ قد أخذت على هذه النظرية .

قال الأستاذ محمد فريد وجدى: إن أكبر الاعتراضات على مذهب داروين تنحصر فى ثلاثة أمور هى :

١ - عدم مشاهده أى إرتقاء من أى نوع كان من الأحياء الأرضية من ألوف السنين .

٢ - عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل كأن يوجد (مثلا) حيوان أرقى من القرد رتبه واحده وأدنى من الإنسان رتبه واحدة أيضا .

٣ - طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحياء ، فإن عمر الأرض كما قالوا : لايكفى : لأحداث كل ما يرى من هـــذه الأشكال المختلفة غاية الإختلاف[1] :

وقال الأستاذ نديم الجسر فى معرض الحديث عن نظرية « داروين » :

أما الردود العلمية فهى كثيرة أهمها أن الحيوانات البحرية الدنيا هى باقية حتى اليوم على الحالة التى كانت عليها فى إبتداء العالم، ولم نجد أنها تأثرت بناموس

(١) من كتاب (دائرة المعارف) المجلد الرابع ص ٣١ .

الارتقاء - وأن طوائف الأحياء الكبرى الدنيا منها والعليا ، وجدت منها آثار فى أسفل طبقات الأرض فلو كان ناموس الارتقاء أكيدا لوجب أن يكون الأعلى منها كذوات الفقرات فى أعلى الطبقات ، وإننا نجد كثير من الأجناس والطوائف قد كانت فى العصور القديمة الأولى أكمل منها اليوم ، ونجد فى الطبقات الأرضية بعض حيوانات دنيئة فوق حيوانات عاليه جداً[1] .

كيف يهب الحياة فاقدها :

أما عن الطبيعة التى أشرت سابقا إلى مفهومها فى زعم أنصارها والمتشيعين لها من أنها كان لها التأثير الواضح فى وجود الكائنات - وعلى رأسها الإنسان فأقول : كيف يمكن لعاقل يحترم نفسه أن يسلم بأن السافل الناقص العاجز الأخرس الأبكم المجرد عن العقل والشعور والادراك (وهذه منزلة المادة والطبيعة) يستطيع أن يخلق الأعلى القادر العاقل المتكلم الناطق المفكر (وهذه صفات الإنسان) ثم يرعاه ويسيره بل ويطوره وينميه ؟؟؟ فهل يصح فى قضية العقل أن يكون الخالق المبدع المتصرف أحط من المخلوق والصانع المبدع أدنى من المصنوع ؟؟؟ هذا ما يقوله الفيلسوف « لامارك » ويريد منا أن نؤمن به حيث يزعم أن المادة الخرساء الجامده الميته (فى ظل الطبيعة العمياء البكماء الميته) قد صنعت كل كائن حى وأشرفت على تطويره وترقيته ومن ذلك الإنسان العاقل المدرك المفكر فهل تريدون (معشر الملحدين) تناقضا أشنع من هذا ؟؟

إن شيخ الملحدين « لامارك » يتابعه فى ذلك داعيه الالحاد فى ألمانيا

(١) من (كتاب قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن) ص ٦١ بين داروين والجسر .

ويسانده العالم السوفيتى « أوبارينا » كل هؤلاء وأمثالهم من دعاة الفكر والإلحاد فى الوقت الذى يزعمون فيه أن الطبيعة المنزهه عن الفساد قد حولت خلق كل كائن حى وأنها القوة القاهرة العامة التى لا تعلوها قوة ، يعترفون (فى الوقت نفسه) كما قال عمدتهم : « لامارك » بأن هذه الطبيعة خاضعة لغيرها ومحكومة بقوانين تتحكم فيها لا تستطيع الخروج عن توجيهها وهكذا يدفع الحرص على إنكار الإله الخالق بهؤلاء الماديين إلى : الوقوع فى أشنع أنواع التناقض المفضوح .. فبينما نرى الفيلسوف « لا مارك » يرفع المادة والطبيعة إلى درجات الكمال فيعطيها صفة القادر على كل شىء المنزه عن كل نقص حينما يقول أنها القوة العامة المنزهه عن الفساد والقادره على الرعاية الأبدية والخلق والإبداع . إذا به يجردها من هذه الصفات فيضعها فى مكانها ويهوى بها إلى منزلتها منزلة العاجز المربوب بين المخلوقات المحكوم بغيره والمحتاج إلى سواه حيث يقول : إنها (أى المادة) بطبيعتها مجرده عن العقل ومحكومه بقوانين ، إن « لا مارك » هنا أراد بهذه الفلسفة إنكار وجود الإله الخالق ولكنه (فى هذه الفلسفة) قد اعترف من حيث لا يعلم (مرغما) بوجود الله تعالى .. ولا يجوز بأى حال من الاحوال . أن يهب الحياة فاقدها - لأنه يستحيل (عقلا) أن يضع القانون من لا يعلم شيئا عن القانون وأن يهب الحياة ويضع نظامها من ليس بحى فى نفسه كما أنه من الصفاقة والوقاحة بمكان القول بأن المحروم من العقل والإدراك هو الذى يمنح العقل ويهب الإدراك وأن الذى لا يشعر بوجود نفسه يضع لغيره قانون الشعور . فالطبيعة (التى تعزون إليها وضع نواميس الكون بما فيه من إنسان وحيوان وجماد وشجر) هى « كما قال « لامارك » ويقوله كل ويقوله كل الملحدين حتى هذه اللحظة مجردة عن العقل والحياة والشعور والإدراك .. فبأى منطق يمكن الإنسان العاقل أن يصدقكم حينما تزعمون أن الطبيعة التى هذا من شأنها هى التى أوجدت لكل كائن حى فى هذا الكون نظام حياته وقوانين شعوره وإدراكه ؟ حقا ، أن هذا لهو الهوس الذى لا هوس بعده والتناقض الذى دونه كل تناقض .

كيف نحمى عقائد الشباب من الانحراف :

وأخيرا ينبغى لى أن أجلى حقيقة لا بد من كشف اللثام عنها وتبيين منهجها وهى الطريقة التى نسلكها لتجنب الزلل فى مثل هذه الافتراءات .. ؟

يطيب لى ولكل منصف أن يبرهن للخائفين على عقائد المسلمين من النظر فى مثل هذه النظرية ، إن حماية عقائد المسلمين هؤلاء لا تأتى عن طريق إنطواء علماء الإسلام على أنفسهم وانعزالهم الشديدة التى لا تسمح (بأى حال من الأحوال بالنظر فى مثل هذه النظرية والتعرف على أى شىء من قواعدها أو معرفة غاياتها ومقاصد واضعيها ، وإنما تأتى هذه الحماية عن طريق نظر علماء الإسلام فى مثل هذه النظرية بتعمق وفهم وإمعان ، ليتمكنوا من حماية الجيل المثقف (الذى لم يعد بالإمكان الحيلولة بينه وبين النظر فى مثل هذه النظرية) مما يمكن أن يتخذه دعاة الإلحاد وسيلة للانحراف بالشباب المثقف الذى تكون قراءته (غالبا) لمثل هذه النظريات قراءات سطحية لا يستطيعون معها تجنب مافيها من مزالق مقصودة يضعها فى طريقهم سماسرة الإلحاد الذين يفسرون هذه النظرية وفق أهوائهم كما يفعل الشيوعيون عندما يتحدثون عن نظرية (داروين) نحن كمسلمين وكحراس للعقيدة كيف نسلم بأن النوع الإنسانى ينحدر أصله إلى القرود ، فهل يرضى مؤمن أن يسلم بأن النوع الإنسانى (ومنه الأنبياء والمرسلون) يتحضرون من القرده ؟؟ إن هذا قول غاية فى الفظاعة ولا يمكن التسليم به أبدا - إن أهم نقطة فى الموضوع (من الناحية الدينية ليست فى كيف نسلم أولا نسلم وكيف نرضى أو لا نرضى ، وإنما المهم هو كيف نتأكد بأن الإنسان حقا قد تحضر أصله من القردة . فالقول بأن النوع الإنسانى يرجع أصله إلى القردة لا يزال وسيظل (فى نظرى ونظر كل منصف) وهما من الأوهام أساسه الحدس والتخمين حيث لم يستطع أحد (حتى هذه اللحظة) القول بأن تحضر النوع الإنسانى من القردة هو حقيقة واقعة يقرها العلم .

وحتى قطب نظرية التطور والإرتقاء « داروين » نفسه لايرضى أن يكون قردا من الناحية العقلية ، فالمسألة (إذا) لايفصل فيها بالرضى والتسليم أو عدمهما ، فهذه أمور لا قيمة لها (فى نظر الدين والعقل والعلم على السواء) عندما يأتى دور وزن الأشياء بميزان الحقائق لنفيها أو إثباتها ، فالرضى والتسليم أو عدمهما غالبا ما يكون مصدرهما العاطفة لا العقل ، وما دام أن القول بأن النوع الإنسانى قد تحضر من القردة ، عندما نضعه فى ميزان الحقائق لايساوى شيئا فإن الذى يلزم علينا أن نفهمه (من الوجهة الدينية والعقلية) ليس الإعلان بأننا لا نسلم ولا نرضى بأن يكون أصلنا (نحن بنى الإنسان (قد تحضر من القردة وإنما الإعلان بأننا نقف من ذلك القول موقفنا من أيه مزاعم ليس لها أى ظل من الحقيقة — أما إذا قام الدليل المحسوس القاطع (وهذا بعيد جدا) على أن النوع الإنسانى قد تحضر أصله من القردة فإنه لا مجال للإنكار أو الاستنكار ، لأن ذلك إذا ماحدث فإنما يكون قد حدث بقدره الله تعالى وإرادته . وحينئذ فإنه ليس لأى إنسان أن يقول أنا لا أسلم ولا أرضى بأن يرجع أصلى إلى القرود ، لأنه إذا ماقال ذلك فإنما ينكر الحقائق الواقعه ويعترض على الخالق — سبحانه وتعالى — وصدق الله العظيم إذ يقول (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم)[1] .

وبعد فهذا هو الإنسان الذى اتضح لنا من خلال معايشتنا له ومن خلال نظرة الأديان إليه وما إمتن الله عز وجل عليه به من نعم وبما صورناه مما قاله أهل الزيغ والافتراء عليه أقول لعلنا من خلال هذا كله قد جلبنا عظمة الله عز وجل التى اكتنفت هذا الانسان والأمل فى الله كبير أن نكون قد أحققنا الحق ونختم بحثنا بإثبات الشكر والمنه لمنعم المنه فنقول كما علمنا، وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين ؟

(١) سورة التين الآية (٤)

المراجـــع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ إنجيل متى الإصحاح الخامس والسادس ، المطبوع بنفقة جمعية التوراة الأمريكانية ، فى المطبعة الأمريكانية فى بيروت .

٣ ـ آيات الله فى الآفاق أو طريق القرآن الكريم فى العقائد ، محمد أحمد العدوى .

٤ ـ الاسلام ونظرية داروين ، محمد أحمد باشميل الطبعة الثانية .

٥ ـ سفر التكوين الإصحاح الأول المترجم من اللغة العبرانية ، مطبعة التوراة الأمريكانية فى بيروت .

٦ ـ مقال فى الإنسان دراسة قرآنية ، الدكتورة عائشة عبد الرحمن — بنت الشاطىء .

٧ ـ عقائد المفكرين فى القرن العشرين ، عباس محمود العقاد .

٨ ـ دائرة معارف القرن من الرابع عشر إلى العشرين ، محمد فريد وجدى الطبعة الثانية .

٩ ـ قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ، (بين داروين والجسر) للشيخ نديم الجسر .